النسويّة في الخطاب الدينيّ الإسلاميّ- تجربة "نساء وآفاق"

سائدة محسن- بيادسة*

في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، كان التيّار النسويّ الفاعل في السياق الدينيّ في عداد البديل الهامشيّ للنسويّة العَلمانيّة المتأثرة بالغرب في الدول العربيّة، وكان مشكوكًا في أمر انتسابه إلى النسويّة أصلاً، وذلك حتّى العقود التي ودّعت القرن العشرين. كان هذا التيّار متخوّفًا بل مقاومًا للطريقة الغربيّة، باحثًا عن وسيلة لفهم الدونيّة النسويّة وإحداث تغيير اجتماعيّ، ثقافيّ ودينيّ من خلال طرح خطاب محلّـيّ إسلاميّ.

يتعاطى الفكر النسويّ الإسلاميّ (إذا صحّ التعبير ومع التحفّظات حول التسمية أصلاً) مع النصوص الدينيّة الإسلاميّة، والثقافة العربيّة الإسلاميّة، وكذلك المجتمع الإسلاميّ العصريّ، التي تواجه جميعها تحدّيات محلّيّة وعالميّة تنادي بالتغيير. وهي (النسويّة) تسعى إلى تعزيز النساء المسلمات عن طريق رؤية جديدة للإسلام، رؤية ناقدة للخطاب الدينيّ السائد والتفاسير الكثيرة المتعلّقة بالنساء فيه من جهة، وتميّزها رغبة في أن تـنشط من خلال السياق الثقافيّ الاجتماعيّ للمجتمعات الإسلاميّة في العالم أجمع، من جهة ثانية، والتي يؤدّي الدين دورًا مصيريًّا في التأثير على حياة أفرادها، ولا سيّما النساء.

تعرف بعض الباحثات النسويّة الإسلاميّة بأنّه خطاب وسلوك ينشطان داخل منظومة إسلاميّة. وكما ذكرت آنفًا، النسويّات اللواتي ينادين بهذا التيّار يقلن إنّه جاء ليستجيب لاحتياجات النساء اللواتي لا يشكّل ترْكُ الدين كمنظومة إيمانيّة وسلوكيّة ملزمة إمكانيّة واردةً بالنسبة لهنّ، سواء

أكان ذلك نابعًا من إيمان عميق ورغبة حقيقيّة (لأنّهنّ يرَيْنَ أنّ النصّ المؤسّس يتّسم بالعدالة والمساواة)، أو رضوخًا للقمع وللضغوط الاجتماعيّة. ولهذا ترى هؤلاء النسويّات أنّه من الضروريّ، من ناحية النساء المسلمات، الفصلُ بين ما تنصّ عليه النصوص الدينيّة، والصورة التي يفهم بها المجتمَعُ الدينَ ويقوم بتفسيره. فالنصّ الدينيّ، في أحيان كثيرة، يتيح للنساء هامشًا من الحرّيّة يحرمهنّ منه المجتمعُ الأبويّ بناء على فهمه وتفسيره للدين (وهما -الفهم والتفسير- أمران قام بهما الرجال منذ فجر التاريخ الإسلاميّ، وما زالوا يقومون بهما). تقول مارغو بدران إنّ علينا كذلك أن نميّز بين "النسويّة الإسلاميّة" كمشروع معلن وكمصطلح تحليليّ، وبين "النسويّات المسلمات" كمصطلح يعبّر عن هُويّة، فبعض النساء المسلمات يعرّفن نشاطهنّ الساعي لخلق عدالة جَنْدريّة واجتماعيّة والذي يعتمد القرآن منطلقًا، باسم "نسويّة إسلاميّة"، بينما لا تصفه أخريات كنسويّة وإنّما كمشروع لقراءة جديدة للقرآن من منظور نسائيّ. وهكذا فإنّ هذا المصلح يتّسع ليشمل نساء مسلمات متديّنات يعملن على رفع مكانة النساء في مجتمعاتهنّ انطلاقًا من إيمانهنّ بالمساحة المتاحة لهذا التغيير في إطار الدين، كما يشمل نساءً عَلمانيّات (بعضهنّ نساء غير مسلمات) يعشن في سياق إسلاميّ، ويقرّرن أن يخضن غمار الفكر الدينيّ ويحاولن التغيير من خلال طرح فهمهنّ للنصّ الدينيّ المتعلّق بالنساء، دون أن يعتمدن النسويّة الإسلاميّة كهُويّة، وإنما كإستراتيجيّة ناجعة ترمي إلى إحداث تغيير اجتماعيّ.

أمّا الأساليب البحثيّة التي تستخدمها النسويّة الإسلاميّة، فهي أساسًا الأساليب التقليديّة الإسلاميّة مثل الاجتهاد والتفسير، لكنّها تضيف إليها أدوات من مجال علم اللغة والتاريخ والنقد الأدبيّ والإنثروبولوجيا وغيرها. وتقوم النساء اللواتي يدخلن مجال تفسير القرآن بتجنيد خبراتهنّ الحياتيّة وطرح القضايا التي يرَيْنَها مُهمّة ومفصليّة لهنّ كنساء، مؤكّدات أنّ التفاسير التقليديّة ومعظم التفاسير الحديثة تعتمد تجربة الرجال كأساس للتفسير والفتوى، وتمنح الرجالَ الأفضليّة على النساء.

إنّ تعاظم قوّة التيّار الإسلاميّ في المجتمع الفلسطينيّ هو سبب ذو ثقل في محاولة تفسير التجربة المحلّيّة للنسويّة في الإسلام، حيث إنّ المجتمع يرفض ما يعتبره قيمًا غريبة أو غربيّة لا تنبع من الموروث الثقافيّ الدينيّ ولا تنطق بالمحلّيّة، ولهذا فإنّ النسويّات الفلسطينيّات يرَيْنَ أهمّيّة العمل على التغيير من خلال السياق الدينيّ، المؤثّر في المجتمع. لكن هذا العامل ليس وحيدًا، فالنسويّة

الإسلاميّة عمومًا لا ترى، بالضرورة، تضادًّا بين الإسلام والقيم الكونيّة بالشكل الذي يمنع التوفيق بينهما ضمن منظومة حقوقيّة واحدة أو يمنع وجود أسس دينيّة لحقوق تطالب بها النساء في الشرق كما في الغرب، وتعتمد المواثيق الدوليّة أساسًا لها.

في رأيي، إنّ الطريق أمام النسويّات الفلسطينيّات في الداخل ما زال طويلاً للقول إنّه قد تبلور وعي نسويّ لدى غالبيّة النساء الفلسطينيّات، يؤهّلهنّ ليكنّ قوّة ضاغطة في سبيل إحداث التغيير الاجتماعيّ. معنى هذا أنّه بينما يشكّل هذا التيّار حركة نسويّة ذات تأثير متفاوت في البلدان العربيّة والإسلاميّة المختلفة (وإن كان تأثيرًا قويًّا في أغلب الأحيان)، يصعب القول إنّ الأمر هو على هذا النحو محلّيًّا. فجمعيّة **"نساء وآفاق"** التي تبتغي إحداثَ تغيير اجتماعيّ في مكانة النساء -وبخاصّة المسلمات منهنّ (لكن ليس الأمر محصورًا فيهنّ)- من خلال طرح رؤية نسويّة بديلة للرؤية التقليديّة التي يطرحها الدين، أي إنّها تعمل من خلال السياق الدينيّ، تعمل أساسًا على رفع وعي النساء (كما المجتمع عمومًا) للقمع الذي تعانيه النساء، وما زال طريق النضال في بعض القضايا العينيّة في أوّله، حتّى إنّه قد يتولّد أحيانًا لدى المراقب من بعيد انطباعٌ مُفادُه أنّ المجموعات النسويّة -ومنها "نساء وآفاق"- ما زالت بمنأى عن الأغلبيّة الصامتة من النساء وتجنيدهنّ للنضال من أجل قضاياهنّ. صحيح أنّ جمعيّة "نساء وآفاق" كانت قد عملت منذ بداياتها على الدعوة إلى التغيير من خلال السياق الثقافيّ الاجتماعيّ للمجتمع الفلسطينيّ، والدين في مركزه، إلاّ أنّها واجهت -كسائر الجمعيّات- اتّهاماتٍ بأنّها ذراع لأجِنْدَة غربيّة ترمي إلى هدم الإسلام وتشويه صورته، وهو ما أفقدها بعضًا من رصيد جماهيريّ كان في مستطاعها تحقيقه كجمعيّة نسويّة طليعيّة تنشط في السياق الدينيّ، وطبعًا أسهم الأمر في تحجيم نشاطها وتضييق الحيّز الذي عملت وتعمل فيه. أضف إلى ذلك محاولة الزجّ بالعمل النسويّ عامّة إلى مكان هامشيّ نظرًا "للتحدّيات الوطنيّة الحقيقيّة" التي يواجهها شعبنا الفلسطينيّ في الداخل، والرفض الذي تتعرّض له الجمعيّة في أوساط النسويّات العَلمانيّات، أو بعضها، اللواتي يكرّرن مقولة أنّ النسويّة والدين ضدّان لا يلتقيان، ممّا يعني أنّ الجمعيّة تحاول أن تؤسّس لشرعيّتها أمام الدين والعَلمانيّة على حدّ سواء.

قبل أكثر من عامين، قامت "نساء وآفاق" بطرح قضيّة حرمان النساء العربيّات من الميراث، وذلك ضمن حملة إعلاميّة وجماهيريّة لرفع منسوب الوعي لهذه القضيّة، ونجحت في إثارة النقاش حول

الموضوع وما يعنيه من تبعيّة المرأة للرجل واقتصار نشاطها على الحيّز الخاصّ، وربّما نجحت الجمعيّة في إحداث تغيير، وإن كان ضئيلاً، لكن الأمر لم يتكرّر في قضايا أخرى ولم تطرح -على سبيل المثال- قضايا قتل النساء على خلفيّة ما يسمّى شرف العائلة، وقضايا حارقة أخرى. قد يكون منبع هذا الامتناع أو الإحجام التخوّف من التعرّض لهجوم من الجهات المحافِظة، وقد تكون ثمّة أسباب أخرى لذلك تتعلّق بكون الجمعيّة ما زالت في بداياتها فكريًّا ونضاليًّا. ولذا، وكما أسلفت، ما زال درب العمل النضاليّ في هذا المضمار طويلاً، وإن كنت أومن أنّه مهمّ وفعّال على المدى البعيد في إحداث التغيير المنشود، والدليل على ذلك نجده في التأييد والتشجيع اللذين يلقاهما الفكرُ لدى النساء، وأحيانًا الرجال كذلك، والقدرة على تغيير ثوابت ومعتقدات عميقة الجذور لدى جمهور الجمعيّة.

على أيّة حال، إنّ الجمعيّة والفكر النسويّ الذي جاءت لتطرحه يشكّلان تحدّيًا أمام العَلمانيّة والدين في آن، تحدّيًا من الصحّيّ أن يمنح مساحةً تتيح التعاطي معه، وتعزّز التعدّديّة الفكريّة والنضاليّة في مجتمعنا. وأتوقّع لمثل هذا النشاط أن ينمو ويتطوّر وتتّسع القاعدة الجماهيريّة للجمعيّة، ولا سيّما أنّ الجمعيّة بدأت تعمل حاليًّا على مشروع مسوَّدة لقانون أحوال شخصيّة إسلاميّ جديد يحلّ محلّ القانون العثمانيّ المَنشأ، ويستجيب لتطلّعات النساء والتغيّرات الاجتماعيّة الحاليّة، أي إنّ الجمعيّة تُطوِّر آليّات عملها بحيث تصبح أكثر فاعليّة من الناحية الميدانيّة، والتغيير آتٍ لا محالة، وإن كان الدرب مفروشًا بالتحدّيات.

* **د. سائدة محسن- بيادسة** هي محامية وناشطة نسويّة؛ من مؤسِّسات "نساء وآفاق".